- ١ -

- الخلايا الاشتراكية فى مطع القرن العشرين.
- إعلان الحزب الاشتراكى.
- الاشتراكية المصرية من الدفاع إلى الهجوم المضاد.

ثمة روايات عديدة لتلك القصة المجيدة، قصة بدء النشاط الحزبى للاشتراكية فى مصر.. لكن كل الروايات تتفق على أن البداية كانت بأيد أجنبية.

والحقيقة أن الجاليات الأجنبية فى مصر التى تكاثر عددها بعد الاحتلال الإنجليزى ونتيجة للامتيازات الأجنبية قد لعبت دورا هاما فى التأثير على المحتوى الفكرى للطبقة العاملة المصرية ومثقفيها..

والغريب أن هذا التأثير قد اقتصر - تقريبا فى حدود العمال والفكر العمالى. فالمثقفون المصريون كانوا معزولين عن المثقفين الأجانب. يعزلهم تعالى الأجانب واتجاههم إلى تكوين مجتمعات خاصة بهم، واحتقارهم للغة العربية وللمتحدثين بها.. وتعزلهم الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها.. وإحساس كل موظف أجنبى - أيا كان مركزه - بأنه جزء من فئة أكثر تفوقا وأكثر احتراما.

أما العمال فقد كانوا الفئة - الوحيدة - فى المجتمع التى امتزجت فى مجال العمل اليومى مع العمال الأجانب الذين كانوا يؤدون نفس العمل ويتعرضون لنفس القهر ويقاومون نفس المستغل.

يساعد على ذلك أن غالبية هؤلاء العمال كانوا من غير الإنجليز، أرمن، يونانيين، إيطاليين و من خلال هذا الامتزاج فى العمل، بدأ الاحتكاك الفكرى ..

لكن التكوينات الحزبية كانت فى البداية أجنبية صرفة وقد أدى إلى ذلك تخلف العمال المصريين وإحساسهم بتعالى العمال الأجانب عليهم، وعدم الثقة بهم، كما أن هذه التكوينات كانت فى الغالب تكوينات قومية مغلقة فى حدود جنسية واحدة تعمل كامتداد للأحزاب الاشتراكية فى الوطن الأم.

فالتنظيم الاشتراكى اليونانى ظل مستقلا باستمرار واحتفظ بكيانه المستقل حتى ما بعد النصف الثانى من القرن العشرين(*).

والعمال الإيطاليون ،كان الكثيرون منهم يحضرون إلى مصر فى مواسم محددة هربا من نقص فرص العمل فى إيطاليا ثم يعودون إلى بلادهم مرة أخرى وقد أدى هذ إلى استمرار ارتباطهم بالحزب فى الوطن الأم.

لكن هذا لم يمنع من وجود محاولات لإقامة تنظيمات تضم أجانب من جنسيات مختلفة..

ولنحاول الآن أن نتتبع الخيط من بدايته..

والحقيقة أن هناك روايات عديدة، وربما كانت كلها صحيحة طالما أن كل رواية تتحدث عن تنظيم مختلف..

ولنبدأ بأولى هذه الروايات..

ياناكاكاس، بيريديس – اليونانيون والأرمن

اذا كان روزنتال قد بدأ نشاطه عام ١٨٩٩ فإن هناك من بدأ قبله..

ولعل المنظمة الشيوعية اليونانية تمتلك الحق فى أن نقرر لها أنها – وفق ما هو متاح من معلومات تاريخية – كانت أول مجموعة منظمة مارست نشاطا شيوعيا فى مصر..

وتحفظ لنا صحف عام ١٨٩٤ معلومات عن واقعة «ضبط أحد اليونانيين وهو يوزع منشورا (فوضويا) فى ١٨ مارس ١٨٩٤ يحض فيه العمال على الاحتفال بذكرى نهضة الكومون عام ١٨٧١».

وكانت كلمة شيوعية تترجم فى صحف هذه الفترة فوضوية ثم أصبحت فيما بعد تترجم إباحية.. من لفظ «إباحة» وتشير إحدى المجلات إلى محتوى هذا المنشور فتنقل منه فقرة

تقول «اذكروا أن هذا اليوم هو تذكار نهضة الكومون فى باريس، فهلم أيها العمال المظلومون نتحد جميعا، ونهتف معا فليهلك الموسرون الضوارى ولتحيا الثورة الاجتماعية ولتحيى الشيوعية»[١].

ولابد أن نشير أيضا فى هذا الصدد إلى إضراب قام به العمال اليونانيون فى شركة قناة السويس فى ذات العام..[٢].

ولعل أبرز شخصية يونانية لعبت دورا متميزا ومستمرا فى هذا النشاط.. كانت ساكيلاريدس ياناكاكس تاجر الإسفنج الذى وصفه أحد رفاقه بأنه «ضخم الجسم متوسط القامة، رأسه ضخم كستنائى الشعر، جبهته حمراء، عريضة ومنتفخة، يغلق عينيه برود رمادى غامق لكنه مؤثر ونفاذ، يعطيك انطباعا حادا بأنك أمام شخص قوى البنية، صلب الإرادة. من أسرة أورثوذكسية يونانية متعصبة لم تغفر له أبدا أنه أصبح ماركسيا.

زوجته تانيا ممرضة ضخمة الجسم.. لم يبد عليها أبدا أنها ماركسية لكنها وهبت روحها وكل حياتها لزوجها».

«كان أبوه تاجر الإسفنج الأول بالإسكندرية، وكان تاجرا مرموقا ولم يكن يريد أن يخسر مركزه الممتاز فى المدينة بسبب نشاط ابنه الذى يروج الشيوعية أكثر مما يروج الإسفنج فى أسواق الإسكندرية، لم يكمل ياناكاكس دراسته الابتدائية وتركها ليعمل فى التجارة مع والده. كانت علاقاته فى السوق تدفعه للاحتكاك بوسط راق، فالبرجوازية هى التى تستعمل الإسفنج، بعد فترة بدأ يقرأ بينهم. قال لى ياناكاكس ذلك، وقال أيضا أن الإسكندرية كانت قبيل نهاية القرن التاسع عشر الميناء الرئيسى فى البحر الابيض تغص بالصالونات الأدبية والفنية والمنتديات واللقاءات، وكانت صفوة المفكرين والمهنيين الأجانب تقيم فيها، وكان البرجوازيون اليونانيون كبارا وصغارا يتبادلون فى المقاهى والنوادى والصالونات والمنتديات أحاديث صاخبة فى السياسة.. لا أحد يتفق مع أحد، كانوا يقولون لا يمكن أن يتفق اثنان من اليونانيين حول أية قضية سياسية، وكل اليونانيين سياسيين»[٣].

ولم يكن ياناكاكس وحده، كان هناك أيضا مالانوس، كازانتفلكس، نيكوس نيقولابيدس، جورج بيريدس، كونستانتينيدس بيريدس (الشاعر الشهير)، زربينى (وكان مليونيرا وقد قدم مساعدات كبيرة للتجمعات اليونانية التقدمية وعندما فتحت وصية زربينى بعد وفاته

فوجىء الجميع بأن يوصى بأن يشرف الرفيق ستالين على تنفيذ وصيته وطبعا لم تنفذ)[٤].

وكانت المجموعة الماركسية اليونانية تعيش فى قلب الحياة الثقافية اليونانية.. أسست دار الكتب الشعبية اليونانية ومجموعة من الصالونات الأدبية وأصدر مالانوس وكان صاحب مكتبة شهيرة بالإسكندرية مجموعة من دواوين الشعر وكان كونستانتينيتيندس بيرديس واحدا من أشهر شعراء اليونانية الحديثة.. وأصدر نيكولاييدس مجموعة من الروايات «كانت ترممها يد فنان برجوازى صغير يونانى قبرصى مصرى ينفث فى أبطاله رائحة عطرة من الحب الإنسانى العميق»[٥].

وتشعب نشاط هذه المجموعة ليغزو حتى الصالونات الأرستقراطية..

يقول نيقولاى بباريدوتى «كنت موظفا صغيرا فى البنك الأهلى اليونانى ومنذ صغرى كنت ضد الأغنياء، منذ ١٩١٧ بدأت أقرأ الأدب الروسى المترجم إلى اللغة اليونانية. كنت أحضر مجموعة للدراسات الأدبية يرأسها يونانى رجعى اسمه لوكاس ديستوفيدس وتتخذ مقرها فى المدرسة اليونانية للبنات بشارع دوبريه.. وكان ديتونيدس مليكا يمضى معظم الوقت فى امتداح صفات مليكه.. وفى هذا المكان بالذات تعرفت على شيوعى كان يحضر المناقشات.. هو نيكوس نيقولاييدس.. وكان ذلك عام ١٩٢٠ وأصبحت شيوعيا»[٦].

يقول باباريدوتى.. «لسبب أو لآخر كان الأدب الروسى هو موضة العصر، وكانت كتابات تولوستوى وديستوفسكى وليرمنتوف يجرى تداولها بلهف فى أوساط المثقفين وتجرى حولها مناقشات عديدة»[٧].

وقد اهتمت المجموعة بتقديم دراسات عن الطبقة العاملة وأوضاعها، وألف جورج بيريديس كتابا عن «عمال القطن».

ومن الواضح أن الأدبيات الماركسية -حتى المتعمقة منها- لم تكن بعيدة عن هذه المجموعة. يقول باباريدوتى عن ياناكاكاس «كأن يقرأ كثيرا وخاصة المؤلفات عن الثورة الروسية ومؤلفات لينين وماركس وانلجز وأنا واثق أنه قرأ انتى دوهرنج وكثيرا من مؤلفات انجلز»[٨].

أما متى بدأ اليونانيون نشاطهم الاشتراكى؛ فإن رواية للدكتور عبدالفتاح القاضى تقول «إن الحركة المصرية للتحرر الوطنى كلفته فى عام ١٩٤٢ بكتابة تاريخ الحركة الماركسية فى مصر فاتصل بيناكاكس الذى قال له «إن أول حركة اشتراكية ظهرت فى

مصر كانت وسط اليونانيين الذين اشتركوا فى تأسيس نقابة لعمال الأحذية وكانت مكونة أساسا من اليونانيين والأرمن»[٩].

وعندما بدأت محاولات تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى قالت الأهرام: إن بيريدس شارك فى المفاوضات بصفته سكرتيرا للفرع اليونانى بالإسكندرية[١٠].

ولكن لم تبد أية أسماء يونانية فيما بعد بين صفوف الحزب. ويبدو أن الأمر قد استقر على أن تستمر المجموعة اليونانية فى نشاطها المستقل..

ولكن هذا النشاط المستقل قد تعرض أيضا للمطاردة من جانب أجهزة الأمن.. فما أن وجهت الضربة للحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٤ حتى كان البوليس يلقى القبض دون إذن من النيابة على مجموعة من اليونانيين ضمن حملة القبض الواسعة.. وضبطت لديهم مطبوعات تؤكد وجود منظمة شيوعية يتضمن برنامجها الإطاحة بالبرجوازية الأجنبية والمحلية وطرد الاستعمار الإنجليزى من مصر وإقامة حكم اشتراكى.

وعندما قدموا للمحاكمة صدرت أحكام بالسجن على العديدين وكان من المحكوم عليهم ياناكاكس لذى انتقل فى أعقاب الإفراج عنه إلى القاهرة حيث افتتح محلا لتجارة الإسفنج بشارع سليمان باشا ناصية عبد الخالق ثروت.. وكان هذه المحل ملتقى الشيوعيين اليونانيين والمنتدى الذى يلتقون فيه باستمرار.

والشىء المؤكد أن هذه المجموعة من اليونانيين لم تكن بعيدة عن نشاط الحزب الشيوعى المصرى.. ويقال أن باناكاكس الذى تعرف فى السجن على عامل شيوعى مصرى هو محمد عبد العزيز خرج من السجن ليقدم له تزكيته حتى توالى تصعيده فى صفوف الحزب وأصبح أثر الضربات المتتالية التى أطاحت بالقيادات الأساسية سكرتيرا للحزب ثم اكتشف فيما بعد أنه أصبح عميلا للبوليس..

ومنذ ذلك الحين اتخذ الشيوعيون المصريون، واتخذ الكومنترن موقفا من ياناكاكس وقرروا عدم التعامل معه..

أما الأرمن الذين كان تعداد جاليتهم يصل إلى ٣٠،٠٠٠ فقد وجدت بينهم منظمات ماركسية قوية وأصدروا نشرات غير دورية. وقد لعب الأرمن دورا هاما سواء فى تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى وفى مواصلة النشاط التنظيمى فى صفوفه[١١].

روزنتال وابنته.. وآخرون

وروزنتال شخصية غريبة.. ترددت حوله روايات كثيرة حاولت أن تنسج عنه صورة أسطورية.. فجنسيته غير معروفة بالضبط يقال أنه سويسرى أو روسى أو إيطالى وأحيانا ألمانى.

وقد أكد البعض أنه ألمانى هاجر إلى إيطاليا حيث حصل على الجنسية الإيطالية ثم جاء إلى مصر ثم حصل على الجنسية المصرية.

لكن تقارير أجهزة الأمن البريطانية تؤكد أنه روسى الجنسية.. والحقيقة أن روزنتال وابنته شارلوت كانا محاط اهتمام بالغ ومنذ فترة مبكرة للغاية من جانب هذه الأجهزة سواء العاملة منها فى مصر أو فى كل منطقة الشرق الأوسط ثمة مذكرة سرية موجهة لإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية مؤرخة فى ٩/٢٩ سنة ١٩٢١ تحتوى على البيانات التالية عن روزنتال.

أ- الجنسية: روسى.

ب- المهنة: جواهرجى ١٦ شارع شريف بالإسكندرية.

جـ - أرفق مع هذا تقريرا منفصلا عن نشاط المذكور حتى ٢٧ فبراير ١٩٢١ سبق أن رفع إلى مستشار وزارة الداخلية.

د- أما عن أنشطته حتى ذلك الحين فهى..».

أما التقرير المنفصل عن نشاط روزنتال حتى فبراير ١٩٢١ فقد عثرنا عليه أيضا وهو مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١ ويحتوى على البيانات التالية:

مذكرة رقم ٠٠٧٥٤ فى ١٠ مارس ١٩٢١.

إلى مستشار وزارة الداخلية.

فيما يلى مذكرة بالمعلومات التى فى حوزتنا عن جوزيف وشارلوت روزنتال فى عام ١٩٠١: بدأ اهتمام أجهزة الأمن بالمذكور كفوضوى شديد التعصب يقوم بترويج دعايات مثيرة بين اليهود المحليين.

عام ١٩١٣: ورد اسمه بشكل أساسى فى قضية آداموفتش النهيليست الروسى.

يوليو ١٩١٦: ورد تقرير من إدارة شئون اللاجئين يتهمه بأنه مثير للإضراب والمتاعب فى صفوف اليهود الروس.

نوفمبر ١٩١٨: خلال احتفالات السلام قام برفع علم الاشتراكيين وهو رقعة حمراء فى وسطها كفان يتصافحان.

١٩٢٠/٧/٧: قام جوزيف روزنتال بصفته رئيسا لاتحاد المستأجرين بتنظيم إضراب لمدة ٢٤ ساعة كإعلان عن احتجاج المستأجرين على ارتفاع إيجارات المحلات وقامت ابنته بالإشراف على عدة مجموعات من الأفراد تولت مهمة إجبار أصحاب المحلات غير المشتركين فى الإضراب على إغلاق محالهم.

١٩٢٠/٧/١٦٦: ورد تقرير من بوليس الإسكندرية يفيد بأن المذكوركان المنظم الأساسى لإضراب عمال الترزية كذلك اشترك فى تنظيم إضراب عمال محلات الحلاقة متظاهرا بأنه اشتراكى لكنه كما يقول تقرير بوليس الإسكندرية ليس اشتراكيا وإنما هو مجرد محب للإثارة ويعمل لتحقيق أفكار خاصة به وهو يبذل جهدا كبيرا كى يصبح رئيسا للمجلس البلدى بالإسكندرية وذلك بالرغم من أنه لم يحصل فى الانتخابات السابقة للمجلس البلدى إلا على أصوات قليلة.

١٩٢٠/٨/٣٠: منح بوليس الإسكندرية روزنتال وابنته تصريحا بالسفر إلى إيطاليا وسويسرا والنمسا.

١٩٢٠/٨/٣١: أفادنا قومندان بوليس الإسكندرية بالتقرير التالى «روزنتال معروف كفوضوى سياسى خطر مدرج فى القائمة السوداء أ- معروف بأنه صريح فى التعبير عن آرائه السياسية. له علاقة بكل الحركات النقابية الموجودة بالإسكندرية يمكن القول بأنه اشتراكى ثورى «ذو ميول شيوعيه».

١٩٢٠/١٠/٣: غادرت شارلوت روزنتال الإسكندرية على الباخرة كارلسباد.

١٩٢٠/١٠/٤: وصلت الباخرة المقلة لشارلوت إلى بورسعيد وأفاد قومندان بوليس قناة السويس- وبورسعيد بأنه علم أنها قد حجزت مكانا على السفينة إلى يافا بفلسطين.

١٩٢٠/١١/١٢: ورد تقرير من مساعد مدير الأمن العام بالقدس يفيد بأنه قد ألقى القبض على شارلوت روزنتال بسبب نشاطها السياسى وأن سلطات يافا تمتلك وثائق تؤكد أنها بلشفية.

١٩٢١/١/٤: عبرت شارلوت روزنتال القطرة فى طريقها للإسكندرية[١٢].

* إن هوية روزنتال الشيوعية ظلت غير معلومة للبوليس لفترة طويلة.

* إن أجهزة الأمن كانت تركز جهودا مكثفة وعبر شبكتها الدولية لمتابعة أنشطة روزنتال وابنته.

* إن روزنتال كان شخصية جماهيرية وذا نفوذ وسط الجاليات الأجنبية (اتحاد المستأجرين- نقابات العمال- إضرابات العمال) مكّنته من أن يطمح لترشيح نفسه رئيسا لبلدية الإسكندرية وهو منصب مرموق للغاية فى ذلك الحين.

والحقيقة أن اهتمامات البوليس بروزنتال لم تنته وسوف نعود إليها فيما بعد ولكن بعد أن نستمع إلى ما يقوله روزنتال نفسه أولا- يروى روزنتال فى شهادته أمام النائب العام فى ١٩٢٤/٣/٦ موجزا لجهوده المبكرة فيقول: «إننى منذ حداثتى أميل إلى المبادئ الاشتراكية وأحن إليها وقد كانت أعظم الآمال عندى أن أرى حالة العمال تتحسن بقوة التربية والنظام ولما وفدت إلى مصرمنذ ٣٥ سنة جعلت أسعى لتأليف النقابات وأول نقابة اشتركت فى تأليفها كانت نقابة عمال السجاير وبعد ذلك اشتركت فى تأسيس بضع نقابات أخرى للخياطين وعمال المعادن وعمال المطابع وكانت تلك النقابات كلها تقريبا للعمال الأجانب لأن العمال الوطنيين كانوا فى ذلك الوقت أقلية فى جميع الحرف ودوائر العمل بالنسبة لزملائهم الأجانب»[١٣].

ونلاحظ أن نقابة عمال السجاير قد تأسست عام ١٨٩٩ وروزنتال يروى فى شهادته (١٩٢٤) أنه حضر إلى مصر منذ ٢٥ عاما أى أنه حضر عام ١٨٦٩ ومعنى هذا أنه قد شرع فور وصوله إلى مصر فى خوض معركة تأسيس النقابات العمالية.. وممارسة نشاطه السياسى.. أما البوليس فقد انتبه إلى هذا النشاط كما نرى فى التقرير السرى السابق فى عام ١٩٠١ ولم يكن اختيار عمال السجاير بالذات مجرد مصادفة «فقد كان البدء فى استخدام الآلات الحديثة فى لف السجاير فى أواخر القرن التاسع عشر إيذانا بتشريد لفافى السجاير الذين كانوا يلفون السجاير بأيديهم وقد استمر الإضراب الأول للفافى السجاير شهرين كاملين»[١٤].

ويلاحظ رؤوف عباس ملاحظة لم يجد لها تفسيرا وهى اشتراك لفافى السجاير وغيرهم من العاملين فى مهن أخرى فى إضراب الخياطين.. تأسيا أن روزنتال كان المؤسس والموجه لمعظم النقابات فى ذلك الحين والمنسق بين حركتها وللتضامن فى صفوفها[١٥]...

وثمة وثيقة أخرى تبدى اهتماما بأنشطة روزنتال المتعددة..

الوثيقة مودعة فى ملف خاص من ملفات وزارة الخارجية البريطانية بعنوان «مذكرات عن النشاط البلشفى فى مصر عام ١٩١٩».

تقول الوثيقة عن روزنتال «إنه معروف للبوليس منذ عشرين عاما (الأمر الذى يؤكد أنه كان تحت نظر البوليس منذ وصوله إلى مصر عام ١٨٩٩» وهو يتبنى عادة مواقف متطرفة للغاية فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية.

وصفه البوليس من آن لآخر بأنه فوضوى. مبيج. سياسى خطر ويقول أحد المرشدين وهو يعرفه تمام المعرفة أنه لا شك لديه فى أن روزنتال يعتنق أشد أنواع الشيوعية تطرفا وأنه يعمل بنشاط على ترويجها.. وبرغم أنه يؤمن بضرورة تغيير الأوضاع القائمة، إلا أنه لا يعتقد أنه يحبذ استخدام العنف. هدفه الراهن هو توحيد العمال فى مصر فى اتحاد ضخم وما من شك فى أن أحد أهدافه من القيام بمثل هذا العمل هو نشر الشيوعية فى صفوف العمال تدريجيا.

ولا شك أن اعتناقه لهذه المبادئ يدفعه بطبيعة الحال إلى تشجيع بل والإسهام فى تأسيس ناد مثل «نادى الدراسات الاجتماعية» وهو ناد ينهج نهج الدولية الثالثة، وما من شك أيضا فى علاقة روزنتال كممثل أو كمراسل فى مصر الدولية الثالثة. وهو على مراسلات متصلة بليتفينوف الذى يقال أنه ممثل البلاشفة فى ريفال بأستونيا. كما أنه يتراسل أيضا مع مكاتب الدولية الثالثة فى فينا ونيويورك. ومن المرجح أنه أيضا على علاقة بالعناصر البلشفية فى فلسطين. ويوجد فى صفوف النقابات العمالية التى يؤسسها عديد من العمال إليهود ذوى الاتجاهات البلشفية الذين لهم علاقات بشكل أو بآخر بفلسطين. وثمة شكوك تواجدت مؤخرا فى أنه يتراسل مع العناصر البلشفية فى فلسطين عن طريق أشخاص يسافرون لهذا الغرض. لكن هذه الشكوك لم تتأكد بعد. ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد إلقاء القبض على ابنته أثناء زيارتها لفلسطين فى نوفمبر الماضى. وقد جاء فى تقرير البوليس عنها أنها تعتنق أفكارا اشتراكية متطرفة وقد ضبطت فى حيازتها أوراق صادرة عن الدولية الثالثة.

وقد أدلى روزنتال بحديث إلى السيدة ترافرس سيمونس نائبة رئيس تحرير الأجبسيان جازيت فى مايو الماضى وثمة أشياء ملفتة للنظر فى هذا الحديث. فقد أعرب روزنتال عن ارتياحه لما يحرزه من تقدم فى عملية تنظيم العمال فى نقابات.. وقال أيضا: إنه ما من

فرصة ولو ضئيلة لنشر الشيوعية الآن وسط الفلايحن المصريين وإن فشلت سياسة لينين تجاه الفلاحين المتوسطين (الموجيك) سوف تلقن الشيوعيين دروسا جيدة لدى أية محاولة لنشر دعاياتهم فى المستقبل فى صفوف الفلاحين المصريين.

وقد طرحت مسألة اتخاذ إجراء حازم ضد روزنتال فى شهر مارس الماضى وعرض الأمر على المستشار لكن الدكتور جرانفيل أعرب عن اعتقاده بأنه لا ضرورة لاتخاذ إجراء كهذا؛ بسبب ما يتمتع به روزنتال من تأييد وسمعة حسنة فى الإسكندرية الأمر الذى يؤهله ليطمح لمنصب رئيس بلدية الإسكندرية. كذلك أشار المستشار إلى أن روزنتال يقوم بكل أنشطته فى وضح النهار[١٦].

وهكذا يتضح لنا أن روزنتال كان شخصية مهمة وكان محط اهتمام بالغ من مختلف الأجهزة كما كان أيضا محط اهتمام المثقفين المصريين وخاصة ذوى الاتجاهات الاشتراكية منهم.. بل لعل أهم ما سجلته أجهزة الأمن النشطة أن روزنتال كان محط اهتمام أيضا من جانب الزعامات السياسية المهمة أيضا.. وثمة وثيقة بالغة الأهمية من وثائق وزارة الداخلية المصرية- إدارة الأمن العام، مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ تسجل فى دهشة بالغة «فى ١٠ أغسطس ١٩٢١ قام مصطفى بك النحاس أحد قادة الوفد بزيارة روزنتال حيث عرض عليه بصفته رئيسا لاتحاد العمال بيانا يزمع زغلول نشره قبيل الانتخابات».

ولعل هذه الفقرة تثير المزيد من الاهتمام إذ أنها توضح علاقة- كانت مجهولة- بين زعماء حزب الوفد (سعد زغلول ومصطفى النحاس) وبين العناصر الماركسية (التى كانت قد شكلت فى ذلك الحين الحزب الاشتراكى المصرى) وعلى رأسها روزنتال.

والحقيقة أن روزنتال كان أيضا محط اهتمام العناصر الاشتراكية المصرية التى سعت إليه عندما بدأت فى التفكير فى تأسيس حزب اشتراكى.

يقول سلامة موسى: إنه وزملاؤه عندما قرروا تأسيس جمعية اشتراكية كتبوا إلى مسيو روزنتال باعتباره سكرتيرا للحزب الاشتراكى المؤلف من الجالية الأجنبية فى مصر يسألونه عن برنامج هذا الحزب فإذا وافقهم انضموا إليه[١٧].

ويقول د. على العنانى: «عرفت المسيو روزنتال الذى يسعى منذ أمد بعيد لتأليف حزب اشتراكى فى هذه البلاد وعرفت عنه هذه المبادئ الشريفة العادلة..».

لكن روزنتال برغم حيويته الدافقة، ونشاطه الواسع لم يكن فيما يبدو ماركسيا أصيلا فما لبث أن ثارت خلافات عديدة حوله وبسببه وكان استبعاده من الحزب أحد شروط الكومنترن (الدولية الثالثة) لقبول الحزب المصرى عضوا فيه.. وإن كانت شارلوت ابنته قد ظلت عضوا عاملا وربما قياديا فى صفوف الحزب.. وتزوجت واحدا من منظميه الأساسيين هو أفجدور*

ولم يكن روزنتال وحده.

كانت هناك شخصية أخرى أشد غموضا وأشد إثارة.

شخص لم تستطع أجهزة الأمن الإنجليزية التعرف على اسمه بالدقة فأسمته زايدمان أو زيدرمان

وقد عثرنا على عدد من الوثائق المهمة حول هذه الشخصية الغامضة فى الأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.. أولاها معنونة «مذكرة عن أدوارد زيدرمان) وتقول هذه المذكرة.

«فى يناير ١٩٢١ أبلغ الميجور كورتنى أن لندن تطلب معلومات عن شخص يسمى أدوارد زايدمان وفى ١٩٢١/٣/٨ أفاد بوليس مدينة القاهرة بمذكرته رقم ب/س/ز/٧٢ جاءت فيها المعلومات التالية والتى أرسلت مباشرة إلى الميجور كورتنى.

«إن الشخص الوحيد الذى يحمل اسم أدوارد زايدمان وفقا لتحرياتنا يقيم حاليا فى الإسكندرية وهو من مواليد أوديسا وقد خدم خلال الحرب العالمية تحت العلم الإنجليزى وعندما أنهى خدمته فى الجيش البريطانى فى عام ١٩١٩ تزوج ابنة شخص يدعى أرون روزنفولد يمنتح مكتبا للسمسرة بشارع الدسوقى بجاردن سيتى.

وليس لأدوارد زايدمان أبوان مقيمان بمصر وليس له أقارب بها سوى أسرة صهره الذى يحرص دائما على التفصل من أية علاقة بزوج ابنته.

ويعمل أدوارد زايدمان بتجارة الأثاث فى مدينة الإسكندرية. وليس لدينا أية معلومات دقيقة حول هذا الشخص ولا حول مسلكه أو اتجاهاته ولكن إصرار صهره على التنصل من أية علاقة به وعلى عدم الإشارة مطلقا إلى زوج ابنته وكذلك بعض شذرات من المعلومات تدفعنا إلى الشك فى أن ثمة شىء ما يحيط بهذا الشخص وربما كان شيئا ذا طابع أخلاقى).

وبعد هذا التقرير أقفل الملف مؤقتا إذ لم تتضح أية أهمية سياسية خاصة لمتابعة المدعو زايدمان.

وفى أبريل الماضى تلقينا معلومات خاصة تشير إلى محادثة شخصية تمت مع البرنس عزيز حسن وقد قال البرنس لمحدثه أنه يعلم أن هناك ٤٠٠ بلشفى فى فلسطين يعملون على بث الدعايات البلشفية وسط السكان العرب وذلك برغم أنهم أنفسهم لا يوجد فيهم من يتكلم العربية وأنهم قد أرسلوا شخصا أو أكثر إلى مصر فى محاولة لتجنيد بعض المصريين وقال البرنس أنه يعرف أحد هولاء الموفدين وأنه يهودى روسى وقد رفض البوح باسمه لكن محدثه يعتقد أن الاسم هو روزنبرج أو روزنبلوم.

وفى أول مايو أشارت مذكرة لقومندان بوليس الإسكندرية إلى أن شخصا يعتقد أنه عميل بلشفى قد ألقى خطابا فى اجتماع عمالى عقد بهذه المناسبة وقد نفى روزنتال معرفته بهذا الشخص ويعتقد قومندان بوليس الإسكندرية أنه غير صادق فى ادعائه هذا. وفيما يلى وصف تقريبى لهذا الشخص وقد دون هذا الوصف فى المذكرة ب/س/أ ٣١٤- والمؤرخة فى ١٩٢١/٥/٦.

القوام: ضئيل

الشعر: أشقر

العينان: زرقاوان

الشارب: صغير وأشقر

لون الملابس: بنى فاتح

القبعة كليفة ولونها بنى فاتح»[١٨].

وتمضى المذكرة فتشير إلى أن قومندان بوليس الإسكندرية قد كتب مذكرة أخرى فى ٨ مايو ١٩٢١ يقول فيها أنه يعتقد أن الشخص الذى ألقى خطاب أول مايو هو نفس الشخص الذى تحدث عنه البرنس عزيز حسن.

وتواصل أجهزة الأمن بحثها الدؤوب حتى تصل إلى الحقيقة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٢١ وتمضى المذكرة قائلة «أفاد بوليس الإسكندرية أن البحث قد توصل بشكل قاطع للشخص الذى ألقى خطاب أول مايو وأن اسمه أدوارد زايد مان وأنه صاحب مكتبة عنوانها ٢٥ شارع انستاسى بالإسكندرية» وما لبثت المعلومات أن تتالت من هذه الشخصية الغامضة.

وسرعان ما ربط البوليس بين اسم هذا الشخص وبين إلحاح لندن فى الحصول على معلومات عنه ثم ربط أيضا بينه وبين حديث البرنس عزيز حسن وأشارت مذكرة البوليس بالإسكندرية أن اعتقاد المصدر الذى نقل حديث البرنس بأن اسم البلشفى المشار إليه هو روزنبرج أو روزنلبوم هو اعتقاد نابع من الربط بين زايدمان واسم صهره روزنفولد.

وتمضى التقارير «أفاد قومندان بوليس الإسكندرية فى ١٩ أغسطس أن السيد بيتروف القنصل الروسى بالإسكندرية قد أبلغه أن شخصا يدعى زيدرمان وهو روسى يهودى ويمتلك مكتبة بشارع انستاسى يقوم بتوزيع منشورات بلشفية وسط اللاجئين الروس المقيمين فى سيدى بشر وذلك عن طريق الملازك ثان الكسندر نيكولاييف الذى كان ضابطا بالجيش الأحمر والذى تم أسره بواسطة جيش دونكين»[١٩].

وسرعان ما نجح بوليس الإسكندرية النشيط فى جمع معلومات إضافية عن هذه الشخصية وسجل ذلك فى مذكرة سرية جديدة تقول «زيدرمان يهودى روسى دخل إلى إنجلترا خلال الحرب يجيد الإنجليزية قال لأحد مرشدينا السريين أنه قد افتتح هذه المكتبة خصيصا لنشر الدعاية البلشفية ويقوم ببيع كتب ومجلات ومواد إعلامية بلشفية بالإنجليزية والفرنسية فى مكتبته وقال له أيضا أنه بانتظار دفعة مكونة من ٥٠٠ كتيب بلشفى وقد تسلم منه مرشدنا السرى كتبا بلشفية هى ذاتها التى يتم توزيعها فى حلقة الدراسات الاجتماعية وجمعية «le clrat» اللتان تمارسان نشاطهما بالإسكندرية وهو أيضا مراسل الجريدة الروسية البلشفية noviya mir الحياة الجديدة.

ثم يكمل قومندان بوليس الإسكندرية أوراق ملف هذه الشخصية الغامضة بمذكرة أخيرة مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ جاء فيها: بالإشارة إلى مذكراتنا السابقة حول الشخص المشار إليه نفيدكم بما توصلنا إليه من معلومات:

(أ) زايدمان هو بشكل مؤكد الشخص الذى ألقى خطاب أول مايو.

(ب) يقوم بدعاية بلشفية نشطة للغاية وسط الجالية الروسية ويوزع بينهم أوراقا شيوعية مطبوعة بالإنجليزية والفرنسية والروسية والعبرية وقد وزع أيضا صورا لتروتسكى وغيره من قادة السوفيت.

(ج) وعندما سئل زايدمان بواسطة مرشدنا السرى عمن يقرأ النشرات المطبوعة بالإنجليزية أجاب بأنها توزع على المثقفين من المصريين، قال أيضا أنه بصدد الانتهاء من

ترجمة كتيب إلى اللغة العربية بعنوان «نداء إلى الشباب» وأن هذا الكتيب سوف يطبع بالإسكندرية والبحث جار عن المطبعة التى ستقوم بطبعه.

(د) أفادنا مصدر موثوق به أن زايدمان قد كتب مؤخرا إلى برلين يطلب إرسال مطبوعات شيوعية باللغة العربية.

(و) المذكور على علاقة وثيقة بجوزيف روزنتال ويعمل معه فى نشر الدعابة الشيوعية».

وهكذا يتضح لنا كم كانت دوائر الأمن مهتمة ومنزعجة من نشاط هذه المجموعة.. وكيف استطاعت برغم الحرص الشديد لأفرادها من التسلل عبر صفوفها والحصول على معلومات عنها.

ويتضح لنا أيضا مدى النشاط الدؤوب الذى بذلته هذه المجموعة لترويج أفكارها ومدى اهتمامها أيضا بالوصول بمطبوعاتها إلى المثقفين المصريين ومحاولاتها المبكرة لترجمة الأدبيات الماركسية إلى اللغة العربية والآن أمامنا أسماء ثلاثة:-

- جوزيف روزنتال.
- شارلوت روزنتال.
- أدوارد زايدمان أو زيدرمان..

فهل من أسماء أخرى؟

نعم هناك اسم نلتقطه من ملفات أجهزة الأمن ورد فى تقرير مرفوع من كلايتون مساعد مدير الأمن العام إلى مستشار وزارة الداخلية يتضمن معلومات حصل عليها البوليس من مراقبة البريد الوارد إلى «جون سولوسى» صاحب صندوق البريد رقم ١٨٥٥ الإسكندرية والتى تشير إلى أن سولوسى هذا كان يستورد (بشكل ما) كميات ضخمة من مواد الدعاية الماركسية ويتضمن التقرير نسخة من أحدهذه المواد[٢٠].

وهناك أيضا اسم مثير للاهتمام هو الملازم ثان الكسندر نيكولاييف الذى تقول تقارير البوليس: إنه كان ضابطا بالجيش الأحمر السوفييتى وأنه كان ينشط فى عام ١٩٢١ وسط الجالية الروسية بالإسكندرية.

ولابد أن المزيد من البحث سوف يصل بنا إلى المزيد من المعلومات والمزيد من الأسماء..

الجماعات والأندية:

وكان طبيعيا أن تصب هذه الأنشطة قبل أن تتبلور فى شكل حزبى.. فى صورة أندية وجمعيات وروابط واتحادات..

وكان روزنتال هو «المايسترو» الذى أتقن ومنذ البداية المبكرة فن إقامة هذه التجمعات الديمقراطية بمختلف توجهاتها.

ففى العام الأخير من القرن التاسع عشر أسس روزنتال العديد من النقابات والروابط العمالية ثم جمع بينها جميعا فى الاتحاد العام للعمال والذى وصل عدد أعضائه إلى قرابة ٢٠ ألف عضواً[٢١] كما تكونت فى هذه النقابات وفى المراكز العالية المهمة صناديق المعونة الحمراء.. التى تستهدف جمع مدخرات عمالية استعدادا للإنفاق على العمال عند إضرابهم عن العمل.

وكان هناك أيضا اتحاد المستأجرين الذى استهدف توحيد جهود المستأجرين ضد ارتفاع إيجارات المساكن والمحال. وقد نجح فى تنظيم إضراب شهير لأصحاب المحال التجارية احتجاجا على ارتفاع الإيجارات فى ٧ يوليو ١٩٢٠. وكانت هناك أيضا الجامعة الشعبية التى نظمها الاشتراكيون الإيطاليون لتعليم العمال، والمكتبة الشعبية اليونانية التى أسسها اليونانيون وسلسلة عن الجمعيات اليونانية والأرمنية والإيطالية. لكننا سنتوقف عند جمعيتين نعتقد أنهما أكثر أهمية من غيرهما:

جماعة الدراسات الاجتماعية بالإسكندرية:

groupe d,etudes sociales

وتصفها تقارير الأمن بأنها مصدر أساسى للدوريات والمطبوعات الشيوعية باللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية والعربية وتقول أنها تنتمى إلى مواقف الدولية الثالثة[٢٢] وكان روزنتال رئيس هذه الجماعة.

جماعات الوضوح:clartc

وقد ظل اسم هذه الجماعة يرد فى تقارير الأمن بشكل غامض دون توضيح لماهيتها حتى تمكنا من الحصول على تقرير كامل أعدته أجهزة الأمن عن هذه الجماعة..

يقول التقرير..

«تأسست هذه الجماعة مؤخرا فى مدينة الإسكندرية، وهى تتخذ اسمها من اسم المجلة الأسبوعية الشيوعية clarte والتى تصدر فى باريس وهى مماثلة للجماعات التى تأسست

تحت هذا الاسم فى مختلف أنحاء فرنسا وهى تتراسل بشكل منتظم مع المركز الرئيسى لهذه الجمعيات فى باريس ويوجد على رأس هذا المركز شخصيات أدبية وثقافية بارزة مثل أناتول فرانس، هنرى باربوس، رومان رولان.. الخ.

البرنامج:

تستهدف الجماعة السالفة الذكر نشر الأفكار والمبادئ الشيوعية عن طريق المحاضرات والمحادثات الشخصية مع العناصر العاطفة على هذه الجماعة والذين يتزايد عددهم فى هذه الأيام، والذى لا شك فيه أن أعضاء الجماعة هم عناصر عالية الثقافة بصورة ملفتة للنظر تماما مثل أعضاء جماعة الدراسات الاجتماعية، بينما تضم الأندية الشيوعية الأخرث التى يقيمها روزنتال مثل الاتحاد العام للعمل (c.g.t.) عناصر عمالية أساسا وإذا كانت هذه التجمعات الشيوعية الثلاثة ذات أسماء مختلفة فإنها تشكل تجمعا واحدا من خلال عناصر عديدة تعمل فى صفوفها جميعا وهى جميعا تستهدف تحقيق نفس الهدف.. وهو نشر الشيوعية.

اللجنة القيادية:

ويلاحظ أنها كالعادة فى كل الأندية الشيوعية ليس لها رئيس.

السكرتير: أوجوستى تيرنى- موظف فى شركة الملح والصودا.

أمين الصندوق: م. ستيرن.

كذلك تضم اللجنة القيادية أحد اليهود والآنسة روزنتال.

الأعضاء: تضم الجماعة حوالى ٢٥ عضوا معظمهم من اليونانيين الذين ينشطون فى صفوف جماعة الدراسات الاجتماعية مثل ياناكاكس.

جوردانيدس، بيريدس، زوتو- الخ وتضم الجماعة أيضا ثلاثة أو ربعة من إليهود الروس منهم كوب وفسكى وهناك أيضا اثنان من الأفندية المصريين أحدهم يسمى عبد المنعم.

المقر: تتخذ الجماعة مقرا مؤقتا لها فى مقر المكتبة الشعبية اليونانية شارع حمام الذهب (شارع سيدى المتولى).

الاشتراك الشهرى: عشرة قروش كحد أدنى.

الاجتماعات: كان الاجتماع الذى عقد فى الساعة السابعة والنصف من مساء الخامس من الشهر الحالى اجتماعا بالغ الأهمية ذلك أنه قد تمت فيه مناقشة برنامج النشاط فى

المستقبل وقد لوحظ حضور آنسة من القاهرة لهذا الاجتماع هى الآنسة ليلى بيتاراكى lili petaraki وعنوانها طرف مكتبة ستاغرينوس (شارع قصر النيل. القاهرة) وتعتبر هذه الآنسة حلقة اتصال بين شيوعى القاهرة والإسكندرية.. وقد تلى السكرتير قسما وقع عليه الأعضاء وفيما يلى نص هذا القسم:

«إذ نستشعر القلق من انعدام العدالة فى ظل النظام الرأسمالى، ذلك النظام الذى يمكّن حفنة ضئيلة من أن تستغل وتستبد بالغالبية الساحقة التى تشكل الجماهير العاملة فإننى أعلن انضمامى إلى نادى الوضوح وأقسم أننى سوف أقدم كل ما أستطيع من عون للحركة الثقافية الثورية تلك الحركة التى تفتح الطريق وتمهده نحو الثورة الاجتماعية».

وبعد أن ناقش المجتمعون حالة المجاعة المتفشية فى روسيا أفاد أحد الحاضرين أن روزنتال يقوم بجمع تبرعات لإرسالها إلى ضحايا المجاعة هناك واتفق الحاضرون على الإسهام فى هذه الحملة.

ثم تلى تيرنى رسالة واردة من هنرى باربوسى إلى فرع الإسكندرية..

***

الآن يكون الاشتراكيون قد اجتمعوا فى حلقات وأندية.. ويكونون قد تعودوا على العمل المنظم.. ويكون المسرح معدا للانطلاق نحو تأسيس الحزب.

مجموعة البلشفيك.

وقد وصلت هذه المجموعة إلى الإسكندرية عقب ثورة ١٩٠٥، ومن المعتقد أنها كانت مكونة أساسا من عدد من بحارة المدرعة «بوتومكين».

كذلك كان هناك عدد كبير من الروس الذين هربوا إلى مصر من القهر القيصرى ويؤكد مارسيل إسرائيل أنه كان من بينهم أعضاء فى الحزب البلشفى[٢٣].

وتشير رسائل من كروبسكايا (زوجة لينين وسكرتيرة هيئة تحرير ايسكرا) إلى أن أعداد مجلة إيسكرا التى طبعت فى الفترة من مارس إلى أغسطس ١٩٠٢ فى ليبزج كانت ترسل إلى ميناء باطوم بروسيا عن طريق طويل يمر من ليبزج لى برلين ومنها إلى ميناء برينديزى الإيطالى ثم منها إلى الإسكندرية حيث يتم تخزينها سراً فى مخزن تابع لمطعم سباستوبل ويمتلكه روسى بلشالى هو يوسف يوزيفوفتش الذى يحتفظ بالأعداد لحين مرور وقاد بأحد السفن الروسية اسمه الحركى فيريسوتسكى واسمه الحقيقى تريتيكوف وفى

سبتمبر عام ١٩٠٢ ضبط البوليس المصرى مجموعة من أعداد إسكرا قبل نقلها إلى السفينة الروسية بورجوم ووصل تريتيكوف إلى روسيا ليبلغ أن الإسكندرية مدينة خمرة بسبب يقظة البوليس ونشاط القنصل الروسى[٢٤].

وثمة شخصية تستلفت النظر هى نيودور روزنشتين وهو اشتراكى روسى فر من روسيا القيصرية إلى لندن ثم جاء إلى القاهرة ليعمل محررا فى الجريدة الإنجليزية التى كان يصدرها الحزب الوطنى «دى اجيبسيان استاندارد» وقد ألف كتابا فيما بعد عن تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر اسمه «دمار مصر» وقد انتهى من تأليفه فى ١٩١٠ ثم غادر مصر إلى لندن ليشارك بلنت فى إصدار المجلة الإنجليزية egypt وهى مجلة منع كرومر دخولها إلى مصر.

لكن الغريب فى الأمر هو ما يرويه على أحمد شكرى مترجم كتاب «دمار مصر» والذى قال أنه يعرف بروزنشتين شخصيا.. فهو يقول «وعلى أثر شبوب ثورة البلاشفة عاد المسيو روزنشتين إلى روسيا حيث اختاره لينين سكرتيرا خاصا له، ثم عينته الحكومة الروسية فيما بعد وزيرا مفوضا لها فى طهران» [٢٥].

لكن البحث المتواصل أمكنه أن يجمع المعلومات التالية عن هذه الشخصية الفذة:

- روزنشتين من مواليد ١٨٧١ فى بولتافا بأوكرانيا.

- كان من مجموعة الشعبيين حتى طلب القبض عليه فى ١٨٩٠ فهاجر إلى لندن حيث درس الماركسية وانضم إلى الحركة الاشتراكية البريطانية.

- فى ١٩٠١ انضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى حيث تعرف على لينين سنة ١٩٠٢ خلال وجودهما معا فى لندن.

- أصدر كتابه «دمار مصر» ردا على كتاب كرومر «بناء مصر الحديثة».

- عاد إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٢٠ وبقى وزيرا مفوضا فى طهران حتى ١٩٢٢، حيث عاد ليعمل فى وزارة الخارجية السوفييتية، وفى ١٩٣٩ أصبح عضوا فى أكاديمية العلوم السوفيتية. توفى عام ١٩٥٣.

- طبع كتابه دمار مصر بالروسية عام ١٩٢٥ وصدرت له طبعة ثانية فى ١٩٥٩.

والآن ما هو الدور الذى كان يلعبه روزنشتين فى مصر؟ وهو الشخص الهام الوثيق الصلة بالرفيق لينين.

هل أثر فى الحزب الوطنى وفى فريد بالذات؟ بالإضافة إلى أن جريدة اللواء قد نشرت مقتطفات من كتابه على صفحاتها.. أغلب الظن أن هذا لم يكن كل الدور.

فثمة عبارة تستلفت النظر فى تقرير مارسيل إسرائيل فهو يقول: «عندما كان لينين فى فرنسا وسويسرا كان يرسل كل رسائله إلى الحزب البلشفى عن طريق مصر، تصل إلى مصر أولا ومنها إلى روسيا وبذلك أمكن تضليل الرقابة القيصرية».

فهل كان روزنشتين- سكرتير لينين فيما بعد- يقوم بهذه المهمة؟ ربما.

والحقيقة أن المجموعة البلشفية الروسية بالإسكندرية كانت تنشط نشاطا ملحوظا وكانت توجه اهتمامها أساسا إلى البحارة الروس الذين يصلون على السفن القادمة إلى الإسكندرية، وقد تمكنت هذه المجموعة من الاتصال بروسى يمتلك مطبعة فى حلوان حيث كانت تطبع عنده مجلة باللغة الروسية اسمها «ماریاك» أى «البحار» لتوزيعها على هؤلاء البحارة الروس. ولعل هذا النشاط هو الذى يعزز فكرة أن معظمهم كانوا من بحارة المدرعة «بوتمكين».

كذلك تواجد فى بورسعيد عدد من بحارة المدمرة بيرسيفيت التى غرقت فى يناير ١٩١٧ بالقرب من بورسعيد ونجا بعض بحارتها وأقاموا فى بورسعيد، وقد أرسل القنصل الروسى فى بورسعيد سيميرنوف أكثر من برقية إلى الخارجية الروسية يبلغها شكوى السلطات المحلية من النشاط ولم يقتصر نشاط هذه المجموعة على ذلك فقد ساهمت العمال المصريين فى إضراباتهم وفى إحدى المظاهرات العمالية خرج أعضاء المجموعة يحمون علما أحمر مكتوب عليه «الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى (البلشفيك)[٢٦] .

وثارت ثائرة قنصل روسيا فى الإسكندرية وطالب السلطات بتسليمهم فورا وألقى القبض على ثلاث منهم وتنشر الأهرام:

«ألقى القبض فى الثغر على ثلاثة من الروس اللاجئين إليه على أثر الحوادث التى وقعت فى بلادهم ويقال: إن أحدهم من حملة الأقادم (الكتاب) هناك. وسيعودون إلى روسيا محفورين وقد كان لهذا الحادث تأثير شديد بين النزلة الأوروبية فى الثغر» [٢٧].

ويوضح هذا الخبر المنشور فى الأهرام مسألة مهمة هى أن هؤلاء الروس قد وفدوا إلى الإسكندرية «على أثر الحوادث التى وقعت فى بلادهم، ولا شك أنها أحداث ثورة ١٩٠٥ كما يوضح أيضا أنه كان بينهم عدد من المثقفين (حملة الأقلام).

ولعله من المفيد أن نتوقف قليلا عند حادثة الروسيين الثلاثة هذه.

ليس فقط لأنها تلقى بذاتها أضواء على النشاط الاشتراكى فى ذلك الحين.. ولا لمجرد أنها أحدثت ضجة كبيرة للغاية سواء فى صفوف الأجانب عموما أو الصحافة.. وإنما لأنها تعبر عن وجود أشكال تنظيمية كانت تتحرك وتحرك مختلف القوى.. ولأنها على أية حال تعطى لنا صورة عن أساليب العمل وقدرات الحشد ومجالات التأثير للجماعات الاشتراكية العاملة فى مصر فى ذلك الحين.

وبعد أن نشر الأهرام خبر القبض على الثلاث الروس فى ١٩ يناير ١٩٠٧ فنشرت المؤيد فى ٢١ يناير مجموعة من المقالات حول هذا الموضوع:

«الإسكندرية. الحادثة الإسرائيلية الأرمنية لمكاتبنا السكندرى:

وصلكم تليفونيا أمس واليوم ملخص ما حدث فى ثغرنا من الهياج واللجاج ضد قنصلاتو الروسيا وإليكم التفصيل وما جرى بعد ظهر اليوم وما تلاه من المظاهرات والمخابرات الرسمية والخطب وعكسها وما اتخذته الحكومة من الحيطة لحفظ النظام.

هاجر مع من هاجروا من أنحاء روسيا ثلاثة أنفار روسيون أرملى وإسرائيلى روسى ومسيحى ويقال: إنهم من لجان الثورة المحكوم عليهم بالإعدام وحضورهم لمصر لغاية شريرة.. أبلغت قنصلاتو الروسيا ذلك إلى الحكومة المصرية فقبضت على الثلاثة المتهمين ووجدت بين أمتعتهم مواد انفجارية أيدت دعوى القنصلاتو الروسية، وبذلك لم يعد لهؤلاء الثلاثة صفة المجرمين السياسيين لينظر فى أمرهم نظر آخر بعين حكومة دستورية شعارها الحرية والأمن كالحكومة المصرية كما هو مفهوم.

نقُص الرواية بجملتها دون تحيز إلى أحد ولذلك ندع لليراع مجاله ليقول ما ظهر وما بطن من الأمور. ذلك أن رؤوس الجماعة (يقصد الأجانب فى الإسكندرية) قصدوا محافظ الثغر وسألوه عدم تسليم الثلاثة إلى قنصالتو الروسيا فأجابهم باسم الحكومة أن هذا من شئونها فعادوا إلى مجتمعهم وأوعزوا إلى بعض الصحف الإفرنجية بكتابة ما يحمل الشعب على السخط والحكومة على الرأفة بهؤلاء المتهمين.

وقبل ظهر أمس علم الجماعة بالمسألة والظاهر أن مخابرات طويلة جرت فى هذه المسألة فحضر جناب الفريد كمبوس إلى حلقة المضاربة فى البورصة وخطب فى الجمهور حكاية المتهمين وأنهم سيسافرون من بلاد الحرية والعدالة إلى بلاد الجور والاستبداد.

واستنهض همم الناس بعمل ما يفهم الحكومة عدم رضى النزلاء من هذه المجاملة الدولية التى تقضى على ثلاثة أرواح بالزهاق ظلما واستبدادا. فضج البعض لخطابه وكأنهم فى انتظار موقفه.».

ويمضى المراسل ليصف كيف سارت مظاهرة ضخمة تضم «عامة الأرمن والإيطاليين والأروام والإسرائيليين لإبداء سخطهم واستيائهم مع طلب استلام المتهمين من قنصلاتو الروسيا التى أوصدت أبوابها ونوافذها، ثم كانت مظاهرة أخرى يصفها المراسل فى نفس المقال وهى فى الأساس مظاهرة عمالية.

وبعد ظهر أمس أى فى الساعة الخامسة مساء انتظم سلك جمع ثان أكثر عددا وقوة بينهم بعض الفوضويين الإيطاليين والأرمن المستطيرين واليونان الموعز إليهم وبالجملة أن المتظاهرين بالحماس تشددوا بعدد من جمعية العمال المختلطة فمروا من المنشية صائحين الحرية، الحرية. فلتسقط الروسيا وليسقط استبدادها وما زالوا على هذه النغمة مع الترنم بالنشيد الوطنى الفرنساوى (المرسيليز) إلى أن وصلوا إلى القنصلاتو الروسية».

ثم يصف مظاهرة ثالثة توجهت إلى الميناء الغربية «للبعث بالباخرة الروسية الرأسية فى مرساها على الرصيف ظانين أن المتهمين الثلاثة قد أنزلوا إليها بقصد تسفيرهم إلى أوروبا وأنهم سينتزعونهم منها قوة واقتدارا فأحاطوا بالباخرة غير مكترثين بخفراء السواحل وحرس الجمارك وخفراته الذين كانوا فى انتظار هذا الموكب الثائر الهائج.. وقد صعد بعض المتحمسين وليسوا بالعدد القليل إلى ظهر الباخرة فقابلهم ربانها بكل لطف ودعة وأنكر وجود من يطلبونهم وسمح لهم من باب المسالمة أن يفتشوا الوابور ففتشوه فعلا ولما لم يجدوا أحدا نزلوا إلى الرصيف صاخبين مهددين فجاءت مضخة إطفاء النار ومدت خرطومها لتهددهم به فقطعوه إربا بالمدى واعتدوا على الخفراء وعندما جاءت المضخة الكبرى بمائها الحار تهيئوا للمقاومة والشر، وجرت ملاكمة بين أحدهم ورئيس المطافى، الإنجليزى ثم انصرفوا».

ثم يصف مظاهرة رابعة جرت فى اليوم التالى حيث أحاط المتظاهرون بمبنى القنصلية الروسية «فرشقوها بالبيض والوحل والبصل والحجارة وتطاول بعضهم على شارتها الرسمية بواسطة تسلقهم على عمود الترام الثابت أمام بابها فانتزعوا الشارة وألقوها إلى الأرض».

ثم توجهت المظاهرة إلى البورصة « التى غصت بالناس وكان فيهم الروسى والأرمنى واليونانى والإيطالى وهكذا من كل صبغة وجنس وإذا بالخواجا أربيب الإسرائيلى يعتلى منصة جئ بها ليعلو بواسطتهاعلى كل عال فصفق له القوم ترحيبا به فقال يجب على الإسكندرية أن تبطل غدا أعمالها إلى أن تبلغ غرضها تجاه المقبوض عليهم ظلما ويجب على كل فرد ألا يأكل ولا يشرب فى الغد إلى أن ينال أمنية العدل من الحكومة، فصاح الجميع الحرية الحرية وصفقوا له فاستعاد الكلام وهو يرتجف غيظا وانفعالاً[٢٨].

وهكذا.. تبدو الصورة واضحة.. كيف استطاعت العناصر الاشتراكية بالإسكندرية أن تجمع حولها مجمل الجاليات الأجنبية تقريبا فى هذه المعركة وأن تحشدها فى مظاهرات صدامية صاخبة وأن تصعد المعركة إلى الإضراب العام بل وإلى الصيام عن الطعام والشراب تضامنا مع الثوريين الروس الثلاثة.

وكذلك كان الأمر فى القاهرة فى ٢١ يناير كانت المظاهرات أيضا صاخبة وتصف المؤيد الحالة قائلة «فى الساعة الثانية عشرة تماما ابتدأت حركة الناس فى البورصة وأمامها تزداد بحيث لم تنتصف الساعة الواحدة حتى كان عدد المتظاهرين والمتفرجين نحو الألف تقريبا فوقف فى الجمع جهاراً أمام البورصة وفى الشارع العمومى المدعو باطيط وهو مهندس إيطالى فى الخامسة والثلاثين من عمره وتكلم بحماس قائلا: إن الأمن على الحرية الشخصية فى مصر أصبح مهددا إذا صح أن يؤخذ الأبرياء الروسيون الثلاثة إلى الروسيا حيث يلقون القضاء عليهم من غير محاكمة، ولكن لا تيأسوا يا نصراء الإنسانية وصيحوا جميعا بلسان واحد لتحى العدالة» ثم سارت المظاهرة وهى تهتف «لتحيى العدالة وتحيى الحرية وينشدون النشيد الفرنسى بحماس»[٢٩].

وتصف المؤيد اجتماعا آخر لكبار رجال الجاليات الأجنبية عقد «فى نزل الكونتنتال. وقد وقف فى المجتمعين ويبلغ عددهم نحو المائتين بعض منهم للخطابة وتكلم مسيو روسى ومسيو بتراكى وفورفوف وشالوم، إلا أن خطاباتهم كانت معتدلة غير هياجية وعلى أثر هذه الخطابات تألفت لجنة مكونة من مسيو بتراكى وروسى وفورفوف وفيسيه وكولرا وذهبت إلى دار القنصلاتو الروسية لمقابلة معتمد الدولة الروسية السياسى تقابلهم أحسن مقابلة».

ولكى ندرك مدى قدرات الجماعات الاشتراكية وسط الجاليات الأجنبية سواء على الحشد أو التنظيم أو سرعة الحركة نورد هذه الملاحظة التى أوردتها المؤيد فى دهشة «وفى

أثناء ذهاب هذه اللجنة إلى دار القنصلاتو طبع بعضهم إعلانا بالخط الكبير واللغة الفرنسية قيل فيه: إن جواب جناب سفير روسيا على اللجنة المشكلة فى صالح الثلاثة الروس سيبلغ فى تياترو التوفوتيه بشارع كامل الساعة السادسة مساءا، فكان هذا الإعلان الموزع على الناس فى القهاوى والمحال العمومية فى جميع أنحاء العاصمة فى بحر ساعة واحدة بمثابة استدعاء إلى المشاركة فى المظاهرة لأنه ما جاءت الساعة السادسة مساءًا حتى كان عدد عظيم من الخلق أمام تياترو التوفوتيه فدخلوه حتى غص بهم»[٣٠].

كذلك توجه وفد من المتظاهرين لمقابلة اللورد كرومر طالبين عدم تسليم الروس الثلاثة لقنصلهم والتحقيق معهم بمعرفة السلطات المصرية..

لكن سلطات الاحتلال كانت قد حزمت أمرها وقررت توجيه ضربة للنشاط الاشتراكى وسط الجاليات الأجنبية المقيمة فى مصر، وبث الذعر فى صفوف القائمين به شاهرة فى وجوه الجميع سلاح ترحيلهم من مصر وتسليمهم لقناصل بلادهم.

وتواصلت المعركة واستخدم فيها سلاح المنشورات.

وتنشر جريدة الأهرام نص منشور فى القاهرة «أيها الرفاق.. إذا كانت المظاهرة البادئة المنظمة التى اشتركنا بها طلبا للمحافظة على كرامة الملجأ لم تنتج النتيجة التى يريدها الإسكندريون، فمن الواجب لصالح ضحايا الظلم اتخاذ وسائل فعالة حتى تنتصر الحرية والإنسانية.. من الواجب على كل إنسان فى هذه الظروف الحرجة أن يكون مستعدا للعمل وأن يلبى الدعوة عند الحاجة لمقابلة الشدة بالشدة.. فليعش الشعب الروسى وليسقط القيصر السفاح»[٣١].

وتواصل سلطات الاحتلال توجيه ضرباتها للتجمعات الاشتراكية تهدف إضعاف نشاطها وتخويف المنتمين إليها من الإبعاد عن مصر والتسليم لقناصلهم.. وتبدأ سلسلة من المحاكمات السريعة التى تستلفت النظر فى سرعتها فبعد مظاهرات ٢١ يناير بالإسكندرية بدأت المحاكمات فى اليوم التالى مباشرة وتنشر الأهرام:

«جاءكم أول أمس أمام محكمة الإسكندرية الأهلية.. هركيز الكسيان تريسيان الأرمنى وعمره ٢٤ سنة وحرفته خياط وديمترى استاراتى وعمره ١٩ سنة وحرفته إسكافى، ومانولى جرمانى وحرفته حمار لاتهامهم بأنهم أهانوا جلالة قيصر روسيا وأنزلوا على الأرض الشعار الروسى.. ولا يزال التحقيق جاريا عن أعمال عشرة آخرين»[٣٢].

وفى ١٠ فبراير تنشر المؤيد «روت الغازيت أن قنصلية فرنسا فى الإسكندرية تواصل التحقيق فى القضية التى رفعتها الحكومة المصرية وقنصل روسيا على مسيو كانيشة محرر الريفورم بسبب ما كتبه فى نصرة المتظاهرين لمصلحة المجرمين الروسيين.

ومتى انتهت القنصلية الفرنساوية من التحقيق تقرر هل القانون الفرنساوى يعتبر المحرر مذنبا ومستحقا للمحاكمة»؟[٣٣].

وفى ١٣ فبراير تنشر خبرا آخر «حددت قنصلاتو النمسا يوم غد لمحاكمة الخواجة الفريد كمبوس لاتهامه بزعامة المظاهرات التى حصلت ضد قنصلاتو روسيا»[٣٤].

وهكذا يتضح أن قناصل الدول قد تواطئوا مع اللورد كرومر وسلطات الاحتلال على توجيه ضربة لتلك التجمعات الاشتراكية الأجنبية التى تواجدت فى مصر محتمية بالامتيازات الأجنبية التى تكفل لهم حق المحاكمة أمام قناصلهم فإذا بالقناصل يشددون النكير عليهم.

كذلك يبدو اهتمام سلطات الاحتلال بقص أجنحة هذا النشاط من إصرارها على تسليم الثلاثة الروس رغم عدم التزام الحكومة المصرية بأى معاهدة تقضى بتسليم المجرمين[٣٥].

بل ويبدو هذا الاهتمام أيضا من تخصيص الحكومة لقطار خاص لنقل المقبوض عليهم الثلاثة إلى بورسعيد سرا تمهيدا لترحيلهم إلى روسيا من هناك[٣٦].

أما هؤلاء الثلاثة الذين أثاروا كل هذه الضجة والتى لم نجد فى صحف هذه الفترة أية إشارة لأسمائهم فإن ملفات التحقيق معهم قد أثبتت «أن تاريخ حياة المذكورين وأن تحريرهم محضر ضبط لديهم يدل على تبعيتهم لإحدى لجان الثورة كذلك فإنه من الثابت أن الثلاثة المذكورين روسيون ارتكبوا جرائم سياسية فى بلادهم وحكم عليهم بأحكام أقربها حكم صادر ضد أحدهم لمناسبة الاعتصام الذى وقع أخيرا فى أوديسا وأنهم جاءوا إلى الإسكندرية محتمين فى أرض مصر[٣٧].

وإذا كانت المؤيد والأهرام قد اتخذتا من هذه الحادثة موقفا فيه قدر من الانتقاد لحركة الاشتراكيين الأجانب فإن اللواء جريدة الحزب الوطنى قد اتخذت موقفا آخراً.

ففى تعقيب لها على ما نشرته المؤيد من وصف للمظاهرات احتتمته قائلة «وإنا نحمد الله على أنه لم يكن بينهم مصرى مسلم على الإطلاق».. شنت اللواء هجوما قالت فيه: إن المؤيد قد تغافل كثيرا مما كان يجب عليه إزاء هذه القضية سواء من حيث خطته أو

الشعور الإسلامى فى مصر.. وإذا كان يحمد الله على أنه لم يكن بين أهل المظاهرة مصرى مسلم على الإطلاق فإنما يحمد الله على موت الشعور الحى بين مواطنيه المسلمين والحقيقة أن الوطنى المصرى الحر ينبغى له أن يبكى دما عندما يرى أن لا أثر للمسلمين فى مثل المظاهرات لأن ذلك دليل على أن المسلمين مازالوا لم يدركوا ماهى الحرية الحقيقية، وما هى الوظائف الإنسانية.. ولذلك كان ينبغى على المؤيد الذى لا تخفى عليه كل هذه الحقائق وبقدر ما لها من التأثير فى حياة الأمة المصرية والأمة الإسلامية أن يحض المسلمين من أهل مصر على الاشتراك فى مثل هذه المظاهرات»[٣٨].

وهكذا فإن هذه المعركة لم تمض بلا أثر، حتى بالنسبة لجمهور المصريين ولعل هذا التأثير لم يكن بعيداعن تلك المظاهرات الصاخبة التى لم تلبث أن تفجرت بعد أشهر قلائل والتى نظمها العمال المتعطلون.. وغيرهم.

الإيطاليون:

كان العمال الإيطاليون يفدون إلى مصر بكثرة وقد اهتم الحزب الإشتراكى الإيطالى بتنظيمهم وإيفاد كوادر اشتراكية معهم، إلى حد أن لورد لويد كتب يقول «إن الحزب الاشتراكى الإيطالى كان نشطا فى مصر نشاطا لا يقل عن نشاطه فى إيطاليا»[٣٩].

والحقيقة أن لهذا النشاط تاريخا قديما، ففى أثناء ثورة عرابى ١٨٨٢ وعندما وقف معظم الأجانب ضدها أرسل العمال الإيطاليون رسالة وقعها كامينى رئيس جمعية العمال الإيطاليين بالإسكندرية إلى البارودى رئيس وزراء الثورة يعلنون فيها تأييدهم لأهداف الحزب الوطنى المصرى وأمانيه الوطنية ويستنكرون التدخل الأجنبى[٤٠].

والحقيقة أن مجموعة الاشتراكيين الإيطاليين كانت أكثر هذه المجموعات تنظيما، ولجأت إلى الأساليب التى توحى بوجود عمل حزبى منظم خلفها.

فقد كانت منشوراتها تغمر المدن الكبرى فى عديد من المناسبات وقد طالعنا منشورهم دفاعا عن الثلاثة الروس كما أنهم أسسوا فى الإسكندرية «الجامعة الشعبية الحرة» لتعليم العمال[٤١].

ولعل أهم ما يلفت النظر فى فكرة «الجامعة الشعبية الحرة» هذه هو أنها كانت فيما يبدو أكثر من مجرد محاولة لتعليم وتثقيف العمال، فإن نظرة على مجلس إدارتها الذى تكون فى ١٣ مايو ١٩٠١ تشير بأنه كان يضم عددا من غير الإيطاليين.. مصريين ويونانيين وأرمن..

بما يوحى بأن الهدف كان إيجاد تجمع.. من مختلف الجنسيات ومن بينها المصريين لإدارة الجامعة الشعبية.. ولنشر الأفكار الاشتراكية. التى كرست الجامعة برنامجها أساسا لتقديمها للمجمهور.

ولنطالع بعض أسماء مجلس الإدارة فإنها تقدم لنا صورة كافية: د. مودينوس، د. كاميرينى، المهندس كولو. ومع هولاء أسماء توحى بأنها يونانية مثل باباداكيس، ن. أ. بياجينى لكن هناك أيضا أسماء مصرية مثل عثمان أفندى.. وهناك بالطبع القاسم المشترك فى كل تجمع تقدمى ج. روزنتال[٤٢].

ولعل أهم ما يلفت النظر هو قدم هذا النشاط.. فثمة وثيقة تشير إلى نشاط قديم للاشتراكيين الإيطاليين. هى رسالة من مهردار خديوى مؤرخة فى ٨ جمادى الثانى ١٣٠ هجرية موجهة إلى ناظر مجلس النظار تلفت النظر إلى خطورة «نشاط جمعية الأنترناسيونالى الإيطالية فى الإسكندرية»[٤٣].

.. ولقد استمر هذا النشاط متواصلا وفاعلا ما بقيت فى مصر جالية إيطالية كبيرة العدد.

وآخرون:

ولم تكن هذه هى كل الجهود التى بذلت على أرض مصر، فقد كانت هناك جهود أخرى كثيرة فهناك جندى إنجليزى اسمه فكتور استور كان عضوا بحزب العمال وحضر إلى مصر ضمن قوات الاحتلال إبان الحرب العالمية الأولى.. وقد أقام استور علاقات وثيقة بعدد من المثقفين المصريين ذوى الميول الاشتراكية.. ويشير عبد الرحمن فضل إلى وجود عدد من البلغار الذين أسهموا معهم فى العمل الحزبى من بينهم بعض سائقى التاكسى الذين كانوا يستخدمون فى نقل المواد الحزبية[٤٤].

كذلك يقول د. عبد الفتاح القاضى: إن فتاة بلغارية اسمها «بوبوفا» اتصلت به خلال وجوده فى ألمانيا عام ١٩٢٠ ولقنته الماركسية [٤٥].

والحقيقة أنه لا بد من بذل مزيد من الجهود بحثا عن تاريخ هذه المجموعات الأجنبية التى أسهمت فى بذر بعض بذور العمل الاشتراكى فى أرض مصر.

والمصريون أيضا..

وكان لا بد للمثقفين المصريين من أن يتأثروا بكل ذلك وبتطور الأحداث فى مجتمعاتهم وبنمو النضال العمالى الأمر الذى طرح قضية الاشتراكية أمام أعينهم..

ولا شك أن علاقات الحزب الوطنى بالقوى الاشتراكية قد أثرت فى جناح من أعضائه وخاصة من الشباب فيه.

وفى ١٩٠٧ وزع منشور فى مدينة القاهرة بتوقيع شباب الحزب الوطنى «يدعو المصريين إلى دراسة الاشتراكية والاهتمام بها» ومن بين الموقعين على هذا المنشور سلامة موسى وصالح البهنساوى.

وقد تركت ثورة ١٩٠٥ فى روسيا و١٩٠٨ فى تركيا وإيران أصداء مهمة وسط المثقفين المصريين[٤٦].

ولكم يبدو مثيرا للاهتمام والدهشة معاً، أن تجد ثورة ١٩٠٥ فى روسيا للقيصرية انعكاسا سريعا ومكثفا كذلك الذى وجدته فى مصر..

فالأمر لم يقتصر على بعض أخبار نشرت فى الصحف.. وإنما أليس غريباً أن يصدر فى القاهرة وفى نفس العام ١٩٠٥ كتاب بعنوان «أسرار الثورة الروسية»؟!. يكتب مؤلفه خليل بك سعادة فى مقدمته قائلا: «سيكون للثورة الروسية التى لا تزال حتى هذه الساعة نارها فى اضطرام وأغوارها فى استعار من تغيير شئون الجنس البشرى ونهضة الأمم ما كان لشقيقتها الثورة الفرنساوية فى أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على يد الجور الأثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج ببنى الإنسان من دياجير الجهل والأوهام إلى فضاء الحرية ومناهل العمران»[٤٧].

ويؤكد لاكور أن الخلايا الاشتراكية الأولى وجدت فى مصر فى عام ١٩١٨ وتناثرت فى المدن الكبرى مثل الإسكندرية- القاهرة- بورسعيد.

كذلك لا يمكننا أن نتجاهل إقدام المنصورى على تأليف كتابه عن الاشتراكية وانتشار الحديث عن الاشتراكية فى الصحف المصرية انتشاراً يوحى بوجود قوى اشتراكية مصرية تحركه، كذلك يمكننا تقويم النفوذ الفكرى للاشتراكية فى مصر من خلال دراسة ردود الفعل على العناصر الرجعية التى سرعان ما أحست بالخطر وأخذت تترجم على عجل كتابات معادية للاشتراكية مثل كتب جوستاف لوبون وغيره.

لكن أكثر ما يثير الانتباه فى هذا الصدد هو أن أجهزة الأمن التى كانت تتابع أنشطة الاشتراكيين الأجانب قد أشارت أكثر من مرة إلى اهتمام هؤلاء بالتعرف على عدد من المثقفين والأفندية المصريين ونشر الأفكار- الاشتراكية بينهم.

كما تشير هذه التقارير إلى اهتمام هؤلاء الاشتراكيين الأجانب بتعلم اللغة العربية كمعبر ضرورى للتفاهم مع المصريين. وتشير كذلك إلى اهتمامهم بطبع «أدبيات» ماركسية باللغة العربية.

كذلك فإن وثائق أجهزة الأمن تسجل بدايات هذا التلاحم بين الاشتراكيين الأجانب والاشتراكيين المصريين، سواء فى الاحتفالات المبكرة بعيد أول مايو حيث رصد رجال الأمن الناشطون وجود أفندية مصريين بين الجالسين أو فى صفوف الأندية الثقافية والجماعات ذات التوجه الماركسى مثل «نادى الدراسات الاجتماعية، و«جماعة الوضوح».

ويقول أحد هذه التقارير «إن من بين أعضاء جماعة الوضوح clarte اثنان من الأفندية أحدهم يسمى عبد المنعم»[٤٨].

كذلك تصاعد النضال العمالى المصرى وازدادت إضرابات العمال عنفا وتنظيما، الأمر الذى يوحى بتزايد الوعى الطبقى بينهم.

ولا شك أن نجاح ثورة أكتوبر ١٩١٧ قد ترك آثارا مهمة وسط المثقفين المصريين.

يقول مارسيل كولب «إن الثورة الروسية ١٩١٧ والنداءات التى وجهتها الدولية الثالثة فى السنين التالية «إلى فلاحى وعمال الشرق الأدنى» و«إلى مسلمى العالم ضحايا الاستغلال» قد تركت أصداء ذات أثر فى المراكز الكبرى وخاصة فى الإسكندرية وهى بطبيعتها مدينة دولية»[٤٩].

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ ولعب العمال والفلاحون دوراً ثورياً بارزا فى أحداثها أسهم ذلك إسهاما كبيرا فى دفع العمل الاشتراكى فى مصر خطوات كبيرة إلى الأمام.

ولابد أن نشاطا كبيرا قد حدث، إلى الحد الذى دفع سعد زغلول أن يوجه رسالة سرية من باريس بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩١٩ إلى اللجنة المركزية، الوفد يقول فيها «الوفد غير راض عن المنشورات التى تقيد اعتماد المصريين على الألمان أو تتضمن الانتصار للبلشفيك فإن هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها اتصال بالالمان وبالحركة البلشفية»[٥٠].

وقد بدأت الصحافة الإنجليزية فى مصر حملة ضد ما أسمته بالخطر البلشفى[٥١].

وتصاعدت هذه الحملة إلى حد «أن الجنرال ولسون قائد قوات التدخل البريطانية فى القوقاز أرسل تقريرا إلى حكومته ينصح فيه بالجلاء الفورى عن المناطق المحتلة فى القوقاز

لتركيز القوى اللازمة للدفاع عن بَعض المناطق المهمة فى الإمبراطورية وخاصة مصر والهند اللتين يتهددهما التأثير البلشفى»[٥٢].

وفى اعتقادنا أن هذه الحملات مبالغ فيها جدا. صحيح أن نشاطا اشتراكيا واسعا قد جرى فى مصر ذلك الحين، لكنه لم يصل إلى الحد الذى يدفع بريطانيا إلى سحب قواتها من أماكن أخرى لحشدها فى أرض مصر.

والحقيقة أن قوات الاحتلال قد بالغت متعمدة فى إثارة الفزع مما أسمته بالثورة البلشفية الوشيكة الوقوع كسبيل لإخافة قيادة الوفد والطبقات الوسطى من الحركة الثورية النشطة للعمال والفلاحين فى ذلك الحين، بل وكسبيل أيضا لإزعاج كل القوى الوطنية والإيحاء إليها بأن انتشار الشيوعية فى مصر سيؤدى ببريطانيا إلى رفض منح الاستقلال ولابد أن هذه الفكرة الأخيرة قد سيطرت على أذهان الكثيرين إلى حد أن مؤسسى الحزب الاشتراكى المصرى قد طرحوها للنقاش فيما بينهم عندما شرعوا فى تأسيس الحزب..

فقد كتب سلامة موسى قائلاً «ربما كان الوقت الحاضر أسوأ الأوقات لتأليف هذه الجمعية فإننا فى مأزق سياسى لا ينبغى أن نزيده حراجة بما يمكن أن يتذرع به المعارضون لاستقلالنا فى إنجلترا من أن فى مصر شيوعيين وبلشفيين».

ويقول سلامة موسى أن مؤسسى الجمعية بحثوا هذه المسألة وقرروا «أن التخوف من إقامتها قد لا يكون عائقا فى سبيل المفاوضة الحاضرة.. فإن أكثر أعضاء الجمعية المزمع تأليفها يحسنون اللغات الأوروبية المهمة ويجيدون كتابتها ولن يقصروا عندما يرفع الاستعمار عقرته ويندد بنا، فى الرد عليه وإفحامه ببيان لغته »[٥٣].

ولقد شاهدنا كيف أثرت هذه الدعاية فى سعد زغلول فكتب رسالته إلى اللجنة المركزية للوفد.. وقد أثرت أيضا فى فكرى أباظة الذى كتب «إن مصر البائسة، مصر المستعبدة، مصر الراسفة فى الأغلال همها الوحيد فى الوقت الحاضر أن تبحث عن حريتها.. وأن تتوجه إلى مكان البحث كتلة واحدة ثابتة قوية التركيب، حتى إذا حصلت على استقلالها المنشود، وصفّت الحساب بينها وبين المغتصب استطاعت أن تتفرغ لفض مشاكلها الداخلية..»[٥٤].

إن هذه المبالغة المقصودة كانت تستهدف تخويف كل القوى الوطنية من الاشتراكيين وإيهامهما بأن تأسيس الحزب الاشتراكى خطر على الاستقلال.

ويدخل فى باب المبالغة أيضا ما قيل من أن الفلاحين المصريين قد أسسوا خمسة سوفييتات مستقلة خلال ثورة ١٩١٩.. وقد راجت هذه الفكرة فى كثير من المؤلفات عن هذه الفترة من تاريخ مصر ولا شك أن قائليها يقصدون تلك الجمهوريات المستقلة التى أعلنت فى زفتى والمطرية، المنيا، وغيرها، ولسنا نعتقد أيضا أن مؤسسيها كانوا يستهدفون إقامة سوفيتات بالمعنى الصحيح للكلمة ولكنهم ربما طبقوا شعار الاسيلاء محليا على السلطة ولكن لتحقيق أهداف وطنية ويهدف خلق نقاط ارتكاز للعمل الثورى المعادى للاستعمار والدليل على ذلك أن قادة هذه الجمهوريات المستقلة قد اكتفوا بالإطاحة بممثلى سلطات الاحتلال ولم يتخذوا أى أجزاء تتعلق بالملكية أو بأسس توزيع الثروة.

وهكذا كانت ثورة ١٩١٩ والانتفاضة الثورية العنيفة التى خاضها الفلاحون والعمال خلالها واحدة من العوامل التى ساعدت وشجعت الاشتراكيين المصريين على رفع رايات النضال.

الهوامش

(*) ظل هذا التنظيم قائما حتى صدور قوانين التمصير فى عام ١٩٥٦ ثم قوانين التأميم فى عام ١٩٦١ التى أعقبتها موجات هجرة غادر فيها معظم الأجانب مصر.

(١) الهلال – ١٨٤ج ١٥ – السنة الثانية نقلا عن د.عبدالوهاب بكر – أضواء على النشاط الشيوعى فى مصر – ١٩٢١ – ١٩٥٠ – دار المعارف (١٩٨٣) ص ١٨.

(٢) دار الوثائق القومية – محفظه ١٠٥ داخلية افرنكى – تقرير محافظ عموم القنال عن بيان الحوادث التى وقعت بين شغالى الكراكات وقومبانية القناة من أول أكتوبر ١٨٩٤ لغاية ١٥ منه.. ويتخلص فى اعتصاب العمال اليونانيين بالقومبانية.

(٣) نيقولاى باباريدوتى – تقرير عن ذكرياته ومعلوماته عن المجموعة الشيوعية اليونانية – كتبه بناء على طلب المؤلف وهو مكتوب على الآلة الكاتبة الفرنسية من اثنين وخمسين صفحة بعنوان:
Petit Resume du Movment Politique Grec En Egypte et Toute Particlierement Au Cairo.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) راجع فى الملاحق محضر النقاش معه.

(١٠) الأهرام ١٩٢١/٨/١٦.

(11) w. laquer - communism and natioalism in middle east ibid p.232

(١٢) تقرير بالإنجليزية مرفوع من ى. كلايتون عن المدير العام لإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية إلى ماكنجتون. ومؤرخ فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ (مودع فى الأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية).

(١٣) تقرير بالإنجليزية مرفوع لمستشار وزارة الداخلية المصرية مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١. مودع بالأرشيف العام، لوزارة الخارجية البريطانية.

(14) vallet - contirbution a lettude de la conoution des ouvriers le grand industrie au caine (1991) p.141

(١٥) رؤوف عباس، المرجع السابق، ص٥٥.

(16) f.o. 141- 779 f.g.(1919 note on rosental

(١٧) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩.

*اسمه الحقيقى بهيل كوسى وهو واحد من كوادر الكومنترن الأساسية الكلفة بالعمل فى منطقة الشرق الأوسط وقد ألقى القبض عليه فى مصر عام ١٩٢٥ حيث حكم عليه بالسجن. (لمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع كتابنا اليسار المصرى ١٩٢٥-١٩٤٠ وراجع أيضا والتر لاكور الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط.).

(١٨) مذكرة باللغة الإنجيلزية معنونة «مذكرة عن أدوارد زايدمان (زايدرمان) مودعة بالأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.

(١٩) مذكرة باللغة الإنجليزية تحت رقم ب/س/أ ٤١٩٨٩ بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٢١.

(٢٠) مذكرة مرفوعة من ن. كلايتون مساعد مدير الأمن العام بوزارة الداخلية إلى مستشار وزارة الداخلية مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١. محررة بالإنجليزية ومودعة فى الأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.

(٢١) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٢.

(٢٢) f.o. 141-799 f. g. (1919)

مودعة بأرشيف وزارة الخارجية البريطانية. بالمتحف البريطانى بلندن.

(٢٣) مارسيل إسرائيل «المرجع السابق».

(٢٤) مراسلات لينين وهيئة تحرير إيسكرا إلى منظمات الحزب فى روسيا من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٣. الطبعة الروسية (ثلاث مجلدات) موسكو- (١٩٦٩). رسالة رقم ١٤٦- ص١٨٥.

(٢٥) روزنشتن «دمار مصر» ترجمة على أحمد شكرى. مقدمة المترجم

(٢٦)*نيكولاى كوتساريف. من ألف عام على الطريق، دار الهنا. القاهرة.

(٢٧) الأهرام ١٩٠٧/١/١٩.

(٢٨) المؤيد ٢١- ١- ١٩٠٧.

(٢٩) المؤيد ٢٢-١-١٩٠٧

(٣٠) المؤيد ٢٢-١-١٩٠٧.

(٣١) الأهرام ١٩٠٧/١/٢٤

(٣٢) الأهرام ١٩٠٧/١/٢٤

(٣٣) المؤيد ١٩٠٧/٢/١٠

(٣٤) المؤيد ١٩٠٧/٢/١٢

(٣٥) راجع المذكرة القانونية التى رفعها بالنيابة عن الجاليات الأجنبية فى مصر شالوم، ن. روسى إلى اللورد كرومر بشأن طلب عدم تسليم الروس الثلاثة إلى قنصلهم والمؤرخة فى ١٩٠٧/١٠/٢٢ والمنشورة فى المؤيد ١٩٠٧/١/٢٨

(٣٦) المؤيد ١٩٠٧/١/٢٨

(٣٧) المؤيد ١٩٠٧/١/٢٩ مقال «الخطر من سلطة القناصل. كيف يُتقى؟».

(٣٨) اللواء ١٩٠٧/٢/١١

(39) lord lloyed - egypte since crommer p. 353

(٤٠) رفعت السعيد. الأساس الاجتماعى للثورة العرابية. دارالكتاب العربى ص٢٣٥.

(41) jacques berque - l, egypte imperialisme et revolution

(42) le phare d, alexandrie - 13 - 5 - 1901

(٤٣) دار الوثائق القومية- محفظة ٨١ داخلية إفرنكى.

(٤٤) راجع محضر النقاش معه.

(٤٥) اتضح من البحث عن هذه الفتاة أن الرفيق ديمتروف كان يعمل معه خلال إقامته فى ألمانيا رفيق بلغارى اسمه بوبوف.. ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة أخته.

(٤٦) لاكور-المرجع السابق ص٣٢.

(٤٧) خليل بك سعادة- أسرار الثورة الروسية- مطبعة التمدت بمصر (١٩٠٥) الصفحة ج.

(٤٨) الأرشيف العام- تقرير بعنوان clarte

(49) marcel colombe - lrvolution de l, egypte 1924- 1950

(٥٠) محمد أنيس، دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ص٢١.

(٥١) أجيسيان ميل ١٩١٩/٤/١٦٦.

(٥٢) مارسيل إسرائيل. المرجع السابق.

(٥٣) الأهرام ١٩١٩/٨/١٨

(٥٤) اللواء ١٩٢١/٩/٥.